البيت

وقفت شيلا امام بوابة بيت صغير. بيت يشبه كوخا مبنياً في المكان الخطأ. تبعها، نزولا من الحافلة، عدد من السياح. خمسة رجال وامرأة. الماني. سويسري. فرنسي. هولندي. انجليزي وزوجته.

اشارت شيلا، دليلة الرحلات الادبية، في مدينة سوانزي، الى كتابة باللون الازرق، محفورة على واجهة البيت، مابين شباكين في الطابق الاول، وقالت:

– هذا هو بيته. ثم لمست بوابة البيت المطلية باللون الابيض وقالت، من هنا كان ينظر الى البحر، الى المد والجزر، متأملا.

سألها احدهم:

– ما هو رقم البيت؟

– خمسة

– ما هو اسم الشارع؟

– كوندانكن.

– عفوا؟

بألية موظف متعب تهجت شيلا اسم الشارع.

وقفوا لدقائق صامتين امام البيت. اداروا ظهورهم الى البوابة ونظروا، كما كان ينظر الشاعر باتجاه البحر. حاولوا تقليد ما كان يفعله. ليروا البحر.المد والجزر.لم يروا شيئا. لأن البيوت المبنية حديثا على طرفي الشارع، كانت عالية، تسد مسار النظر.

سادهم احساس بالحزن لانهم حرموا من وسيلة للاقتراب من الشاعر. من طقس من طقوس الحج اليه. للتعويض عما لم يستحوذوا عليه استداروا ليتأملوا ثانية البيت الصغير.

علق الفرنسي " قال بودلير اليس غريبا ان يصبح كل ما ننظر اليه مثيرا للاهتمام بعد فترة من النظر".

ضحك الجميع، ما عداه. بدا حزينا.

خطوا باتجاه الحافلة. قالت غادة:

- تذكرني هذه المنطقة بحي هايجيت في لندن.

سألها الالماني باهتمام

- هل بدأت تشعرين بالحنين الى بيتك؟

- لا.. لا.. انها طريقتي لمعرفة الاماكن الجديدة. اشبهها بمكان اعرفه فلا انساها.

- في هذه الحالة ستفقدين شيئا مهما. ستفقدين متعة الاكتشاف، لانك ، تحولين الاماكن الجديدة الى اماكن مألوفة تعرفينها، فلا تعودي بحاجة الى اكتشافها.

نظرت اليه غادة مستغربة

- كل ما قلته هو ان هذا المكان يذكرني بمنطقة اعرفها.

قال مكملا ، غير مصغ لاعتراضها:

- فتصبح كل الاماكن، بالنسبة اليك، اينما رحلت، مكانا واحدا.

دمدمت غادة في اذن زوجها مايكل لاعنة اياه، لانه اقنعها بمصاحبته في سفرة ادبية.

عادوا الى مقاعدهم، فانطلقت الحافلة. بعد فترة صمت ثقيل يماثل ثقل جو مشبع بالرطوبة، قالت غادة، مبادرة بالحديث، لانها شعرت بانها اذا ارادت تحمل الاربعة ايام المقبلة، مع زوار مدينة

الشاعر، فعليها على الاقل ان تحاول مبادلتهم الحديث:

- آه .. هل اخبرتكم عن حلمي في الليلة الماضية؟

ولم تنتظر اجابة احد، بل استطردت:

- انه حلم غريب جدا. كانت هناك قوة هائلة غير مرئية، تجذبني اليها. تسحبني. وانا متشبثة بكل ما استطيع لمسه او التفكير فيه حولي لاقاوم قوة الجذب المخيفة. صرخت باعلى صوتي رافضة.. لا..لا أريد الذهاب معك. فكان رد الفعل جذبا اقوى، وصوتا غامضا، اقرب ما يكون الى الصدى، لانني كنت اسمع تزامن الصوت مع قوة الجذب بشكل امواج ترتفع وتنخفض تدريجيا.

سكتت غادة. كانت تنظر بعيدا، كأنها تحاول، خلافا لما قالته، الاحتفاظ بتلك القوة الغامضة معها، الا انها انتبهت الى عيون الاخرين محدقة بها فنفضت عنها الذكرى قائلة:

- كان حلما مرعبا.

- هل كان حلما ام كابوسا؟

- لا ادري. كيف اعرف. كنت خائفة جدا.

سأل آخر

- هل كان شبحا؟

- هل تؤمن بالاشباح؟

- كلا.. الا انني اؤمن بوجود قوى خفية. قوى مجهولة تعتمد على عوامل الجذب والطاقة. ظواهر خارقة لا يمكن تفسيرها مثلا. ولكن الاشباح.. وضحك بصوت عال.. انها تهويمات. يتحدثون، كثيرا، كلما زرنا قلعة او بيتا كبيرا مهجورا عن وجود شبح. وصدقوني لقد قضيت ليالي في العديد من القلاع ولم يحضر اي شبح.

قال الفرنسي

- الشبح لا يحضربشكل مادي .. بل يستدل عليه بما يثيره من توتر في دقائق المحيط.

- انه اذن حالة ذهنية يخلقها التوقع لشيء محدد.

تدخلت غادة لتستعيد دورها:

- لا اظن. لقد شعرت بوجود شبح في القلعة الاسكتلندية التي

زرناها في العام الماضي. وسمعت صوت الموسيقى. كان شبحا لموسيقي عاش في القلعة. اجبر على مغادرتها فمات حزينا. ثم عاد ليستوطنها.

انتظرت شيلا، بصبر، انتهاء حديث الاشباح لتعيدهم الى ديلان توماس، فقالت بادب جم:

– اعرف جيدا ان وقتكم محدود، وقد لا يتسع لرؤية كل الاماكن التي سكنها او تجول فيها الشاعر، الا انني اعتقد انه من المهم جدا ان تروا المكان الذي اشار اليه في قصيدته المشهورة "الاحدب في المتنزه".

غادرت شيلا الحافلة. تبعها السياح. قادتهم الى متنزه جميل. مبني مثل كف مبسوط على نهد امرأة. مشذب. فيه بركة مائية، تطفو على سطحها اوراق تشبه الزهور. قريبا من البركة، هناك مجرى مائي صغير. للملتفين حولها، قالت شيلا:

–كان يجلس هنا. تشير الى نقطة معينة. كان هذا مكانه المفضل.

اقتربت المجموعة من نافورة صغيرة لشرب الماء. عادية مثل اي نافورة اخرى في اي متنزه آخر. مهملة. صدئة. جافة.

نظروا اليها بخشوع.

همست غادة:

– انها بحاجة الى صيانة . اجابتها شيلا:

– نعم. بعد انتهاء احتفالات العام بذكرى ميلاد ديلان توماس، سيتم تصليح الحنفية والحوض.

بقوا محيطين بالنافورة. اطالوا التأمل. بقائهم، في الاماكن التي احبها الشاعر وكتب عنها، مدة اطول يعني امتلاكهم لبعض ما امتلكه شاعرهم. مما يوصلهم، اخيرا، الى امتلاك الشاعر. مد الالماني يده ولمس بأنامله فوهة الحنفية، ثم تنهد بعمق قبل ان يهمس بصوت حالم: " شاربا الماء من كوب مربوط بسلسلة."

قالت شيلا:

– لقد سرق الكوب الذي كان مربوطا بحوض النافورة بسلسلة

معدنية، والسلسلة كذلك.

مر رجل راكبا دراجة هوائية. التفتوا جميعا باتجاهه، فنظر اليهم بلا مبالاة.

وضعت غادة يدها على موضع قلبها وشهقت بانفعال قائلة:

– هل رأيتم ما رأيته؟ كم يشبه ديلان توماس.. فقاطعتها شيلا مكملة حديثها:

– كان يقضي ساعات وساعات في المتنزه. متوحدا، يقرأ ويكتب ويتمشى ويشرب الخمر طبعا.

قالت غادة لمايكل وهم يخطون باتجاه الحافلة:

– البيوت جميلة.

– نعم لانها مطلة على المتنزه.

– تذكرني بالبيوت المطلة على ساحل كونويل.

الحانة

جلسوا يشربون البيرة في زاوية مضيئة من الحانة، بانتظار وجبة الغذاء. صور ديلان توماس، على اختلاف مراحل عمره، معلقة على الجدران. جالوا ببصرهم، حول المكان، بصمت. سألت غادة:

– هل هذه حانته المفضلة؟

اجابت شيلا:

– كلا.. واحدة من حاناته المفضلة. اي حانة تقدم له الشراب كانت مأوى مفضلا لديه. كان يلاحق الشراب، اينما كان.

– كيف تدبر معيشته؟

– ديلان توماس كان شحاذا محترفا. يأخذ من الناس ما يستطيعه. وقد مرت عائلته بظروف مادية صعبة بسببه، الا انه كان ينجح دائما في الوصول الى مبتغاه، مستغلا اسمه ومكانته كشاعر.

بعيدا عنهم، على مقربة من البار، تعالى صوت مرتعش، متهدج، بنبرة تقطع نياط القلب. صوت سكير:

الاحدب في المتنزه
سيد وحيد
متكئا بين الاشجار والماء
منذ انفتاح قفل الحديقة
الذي يسمح للاشجار والماء بالدخول
حتى رنين جرس الاحد الصاحي عشية.

أكلا الخبز ملفوفا في جريدة
شاربا الماء من كوب مربوط بسلسلة
ملأه الاطفال بالحصي
في حوض النافورة التي طوفت فيها سفينتي
نام ليلا في وجار كلب
لكن بدون أن يقيده احد

نظرت غادة حولها. دق قلبها متسارعا بعنف. كانت تبحث عن الوجه المألوف ليطابق الصوت الذي تعرفه جيدا. طالما اصغت اليه على الاسطوانات والاشرطة.

رأت رجلا، واقفا، في الزاوية المظلمة، مترنحا، يشير بذراعيه، منحنيا لتصفيق جمهور وهمي. لم يتم القصيدة.

استفهم الهولندي:

– كيف مات؟

–مات في نيويورك، بعد شربه ١٨ كأس ويسكي. جاء في التقرير الطبي انه مات نتيجة Massive Abuse Of The Body

سألت غادة:

– هل كان الكأس مليئا ام انه شرب ١٨ وحدة ويسكي؟

– لا اعرف بالتحديد. فالتفتت غادة الى زوجها، متسائلة:

– ماهو حجم وحدة الويسكي؟

– لا ادري. اعرفها بالنظر وليس بالقياس.

– هل تظنها ٥٠ سي سي؟

– ربما. تدخلت شيلا قائلة:

– احسن طريقة للقياس هي قناني الويسكي الصغيره المحددة الحجم.

بالحاح استمرت غادة متحدثة عن المسألة ذاتها، وكأن معرفة القياس سيساعدها على حل معضلة، مستعصية، طالما ارقتها:

– اذا افترضنا ان ضعف الوحدة هو ٥٠ وضربناه في ١٨ستكون النتيجة ٩٠٠ أي اقل من الليتر. لا اظن انها جرعة قاتلة، خصوصا اذا افترضنا انه شربها خلال عدة ساعات.

حينئذ تدخل مايكل ليضع حدا لما اعتبره ازعاجا للاخرين:

– انها قاتلة اذا كان قد انتهك جسده كل ليلة بهذا المعدل.

المعرض

قاعة مكرسة للاحتفاء بالشاعر. صوره. دفاتره. اشيائه. ديكور المسرحيات. كتبه. صوته يهيمن على المكان، يتناثر على الحاضرين، قصيدة، بيتا بيتا. ثملا، يتم قصيدة سمعوا بدايتها في مكان آخر، كأنه يذكرهم بانه معهم اينما حلوا.

مثل طيور المتنزه جاء مبكرا
مثل الماء استقر
وايها السيد نادوه يا ايها السيد
الاولاد الهاربون من مدارس البلدة
راكضا حين سمعهم بوضوح
حتى تلاشت اصواتهم

دخلت قاعة المعرض، امرأة في منتصف العمر. ضئيلة الجسد. شاحبة. شعرها اشقر تتخلله خصل فضية. بهدوء، جلست خلف

طاولة، بانتظار تجمع الجمهور. ورائها على الحائط صور والدها ووالدتها. صورها واخويها في فترة الطفولة.

اسكت احدهم صوت الاسطوانة. فساد، على حين غرة، صمت موجع يوحي بغياب ما هو خاص ومألوف. تلفت الجميع حولهم. منتبهين الى انهم موجودون في مكان عام. انهم ليسوا، كما كانوا يظنون، لوحدهم مع صوت الشاعر.

بعينين مجهدتين ومستسلمتين لعبء مهمة فرضت عليها، تنقلت ابنة الشاعر بين وجوه الحاضرين. كرنفال جنسيات متعددة. يجمعهم رمز والدها. شعره. افراطه في تناول الشراب. نزعة تدمير ذاته. موته المبكر. ولأنها ابنة الشاعر احاطوها، هي الاخرى، بحجاب شفاف من القدسية. فجلسوا قبالتها متأملين، مستشفين في ملامحها بعض ملامح المعبود.

صامتة بانتظار ان يبادرها احد بالسؤال، عبثت مثل طفلة بالاوراق الموضوعة امامها. قصائد والدها.

رفعت رأسها، انتقت من بين الوجوه، في الصف الاول، وجها معينا لتخاطبه، كعادتها اثناء الحديث. وجه امرأة. وجه شرقي. ذكرها بزيارتها، اخيرا، الى جامعة استانبول، حيث قرأت بعض قصائدها المترجمة الى اللغة التركية.

قالت: هل يرغب احد بسؤالي شيئا محددا؟

صمت.

ديلان توماس يهيمن على القاعة، في شخص ابنته وصوره واشيائه المبعثرة بشكل منظم. صدى صوته في رؤسهم، يتضخم من خلال صوت ابنته:

– ليس سهلا علي ان اكون ابنة ديلان توماس. انه عبء كبير خضعت له بعد لأي. واقتضي تقبلي اياه فترة طويلة. لم اختر تمثيل والدي، الا انني دفعت الى ذلك بسبب الحاح الناس ورفض شقيقي حضور اي مناسبة لها علاقة به. حتى حين نصبوا له تمثالا

لتكريمه في ويلز، رفض شقيقاي حضور التكريم فذهبت لوحدي. انهما يكرهان الاشارة اليهما بانهما ابنا الشاعر.

هل احدثكم عن شعره؟

كان شعره غنائيا. كان صوتا غنائيا، قدم لغة جديدة فسار على خطاه، في التجديد، فيليب لاركن وتيد هيوز. تحدث، في قصائده ومسرحياته، عن موضوعات عادية بطريقة سحرية. الموت والحياة والطبيعة.

يوصف بانه شاعر ويلزي الا انه كان يجهل اللغة الويلزية تماما. لغته الام هي الانجليزية. منعه والده من الحديث باللغة الويلزية، منذ طفولته، لانه، اي الوالد، كان معجبا بالانجليزية، ويعتقد بانها لغة المستقبل. هكذا بات اهم شاعر ويلزي، غريبا على لغته الاصلية، مبدعا في لغة الغرباء.

ماذا عن امي؟

امي.. كانت جذابة جدا. كانت تعتقد بانه عبقري الا انها لم تكن تحبذ الاصغاء لما يكتبه. خاصة وانه كان يرغب بالاستحواذ على اهتمامها كله. كان يحب قراءة شعره بصوت عال ويكرر البيت الذي يحبه عشرات المرات. في المطبخ وفي الحمام بسبب الصدى. فتطرده الى الحديقة.

تهدج صوتها قليلا وهي تتحدث عن امها، ثم قالت بصوت عذب، كأنها تبوح للعينين الواسعتين المحدقتين بها باعجاب. عينا غادة. بسر:

– في كل مرة اتحدث فيها عنه تتغير صورته. اراه بعين مختلفة.

بعينين حالمتين، تملكان قوة جذب هائلة، كشفت ما هو اعمق:

– بدأت انجذب الى والدي، اقترب منه، افهمه، عندما بدأت اقرأ شعره، بصوت عال، للاخرين. لانني كنت اقرأ ما اعرفه، ماعشت طفولتي في ظله. تدريجيا، استعدت صوته الثمل الحزين المتألق فرحا الغارق في العزلة المنتشي باعجاب الاخرين. استعدت والدي.

اثناء تلفظها الكلمات الاخيرة، علا صوتها وانخفض. فرحا. ثملا.

حزينا. منتشيا.
اغرورقت عينا غادة بالدموع. احست، كما في الحلم، بقوة غريبة تجذبها، قوة جذب يصاحبها صوت بعث القشعريرة في جسدها. لم تعد تقاوم. استسلمت للعينين السابرتين لداخلها، للحظة البوح الخاصة، للمفردات، لصوت القصيدة القوي المنبعث من جسد هش.

يقضي الليل كله في المتنزه غير المرتب
خلف السياج والشجيرات
الطيور العشب الاشجار البحيرة
والاولاد المتهورون الابرياء مثل التوت البري
تبعوا الاحدب
الى وجاره في العتمة.

الحقيقة